
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

بسّام بركة

المجاز المرسل والحداثة

أولاً: مفهوم المجاز المرسل قبل اللّسانية

١ - يرى المتتبع لتاريخ البلاغة في تطور الفكر الغربي أن البلاغيين الغربيين كانوا يشعرون بأهمية المجاز المرسل métonymie في عمل اللغة، ولكنهم كانوا غير قادرين إجمالاً على تعريفه تعريفاً لسانياً متكاملاً، إذ أنهم كانوا يكتفون في أغلب الأحيان بترتيب أصنافه في قائمة من الأمثال. فالأب برنارد لامي (B. Lamy) من القرن الثامن عشر، يقول:

«يعني المجاز المرسل استبدال اسم باسم آخر، في كل مرة نستعمل فيها اسماً غير الاسم الصالح نكون قد اخترنا وسيلة تعبير تدعى «مجاز مرسل». فعندما يقال مثلاً «اجتاح قيصرُ بلاد الغال» أو «كل الناس يقرأون شيشرون» أو «باريس في حالة رعب»، يكون المقصود بالطبع اجتاحت جيوش قيصر بلاد الغال وكل الناس يقرأون كتب شيشرون وشعب باريس في حالة من الذعر الشديد. والعلاقة التي تربط القائد بجيشه والكاتب بكتبه والمدينة بسكانها علاقة قوية لدرجة أنه من غير الممكن التفكير بالأول دون أن يتبادر الآخر إلى الذهن مباشرة. لذلك فإن تبادل الاسمين لا يسبب أيّ خلط»[1].

من الواضح أن هذا التعريف لا يقدم أي تحليل لبنية المجاز المرسل؛ فالكاتب يعطي تحديداً عاماً ينطبق على معظم الصور البيانية («استبدال اسم باسم آخر») ويكتفي بسرد بعض الأمثلة وشرحها. وهو بذلك يمثل التفكير العام الذي كان البلاغيون يواجهون به قضية المجاز المرسل منذ عهد أرسطو وحتى مجيء فونتانيه في القرن التاسع عشر. وقد كان هذا الأخير أول من حاول دراسة المجاز دراسة لغوية منظمة. فهو يقول إن المجاز المرسل صورة بيانية تعمل «بالعلاقة المتبادلة» وتقوم على تسمية شيء باسم شيء آخر يكوّن (كالشيء الأول) كلاً منفصلاً تماماً، ولكن هذين الشيئين يدين أحدُهما للآخر بشكل ما إمّا بوجوده بالذات أو بكيفية وجوده. ويميز فونتانيه عدة أنواع من المجاز المرسل وهي:

- مجاز السبب: ذكر السبب للدلالة على المسبب.
- مجاز الأداة: ذكر الأداة للدلالة على ما تستعمل لأجله.
- مجاز المسبب: ذكر المسبب للدلالة على السبب.
- مجاز الحاوي: ذكر الحاوي للدلالة على المحتوى.
- مجاز المكان: ذكر المكان للدلالة على الشيء الموجود فيه.
- مجاز العلامة: ذكر العلامة للدلالة على الشيء الذي تعنيه.
- مجاز الجسم: ذكر أجزاء الجسم للدلالة على العواطف التي تربطها بها.
- مجاز السيد أو رب العمل: ذكر السيد أو رب العمل للدلالة على ما يملكه أو يستعمله.
- مجاز الشيء: ذكر الشيء للدلالة على الشخص الذي يمتلكه[2].

إن تصنيف فونتانيه لا يقدم تحليلاً دلالياً لطبيعة المجاز المرسل، على الرغم من أنه يعدُّ على قدر كبير من الدقة والتنظيم بالنسبة لعصره. فهو يتغاضى عن دراسة بنية المجاز اللسانية والتغييرات التي يسبغها على الوحدات اللغوية التي يدخل عليها. وأهم ما في نظريته - عدا الأمثلة الكثيرة والواضحة - يكمن في نقطتين اثنتين:

أ) يشرح فونتانيه عمل المجاز على مستوى المتكلم، إذ أن ذكر الشيء وإرادة الشيء الآخر يخصان المتكلم ويعبران عن منظاره الخاص (كما سنرى).

ب) يعرّف المجاز المرسل خارج نطاق اللغة، أي بما لا ينتمي إلى اللغة ووظائفها. فالعلاقة التي تحدد طبيعة المجاز

المرسل بالنسبة إليه هي علاقة «شيء بشيء آخر» يرتبط كل منهما بالآخر برباط غير لغوي (الامتلاك، السبب، الاستعمال، الخ..).

من ناحية أخرى، يميز فونتانيه بين المجاز المرسل والمجاز الكلي synecdoque تمييزاً واضحاً. فهو يعد هذا الأخير صورة تقوم على «الصلة» القوية لا على «العلاقة المتبادلة». والجدير بالذكر هنا أن تاريخ البلاغة الغربية كان يقوم على أربعة محاور هي: الاستعارة، المجاز المرسل، المجاز الكلي، السخرية. ثم جاء فونتانيه ليحددها بالمحاور الثلاثة الأولى دون السخرية. أما اللسانيان جاكوبسون ولوغوارن فإنهما يعتبران المجاز الكلي نوعاً خاصاً من أنواع المجاز المرسل ويحصران محاور اللغة والدراسة البلاغية في الاستعارة والمجاز المرسل فقط.

٢ ـ البلاغيون العرب يقسمون أنواع المجاز المرسل ويعرفونه بشكل لا يتعارض إجمالاً مع التقسيم الغربي. فهو عندهم «كلمة استعملت في غير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلي». وهم يصنفون المجاز المرسل بناء على العلاقات التالية:

- العلاقة السببية، كالتي بين «اليد» و«النعم» في قول المتنبي:

لـه أيـادٍ عـليَّ سـابغـةٌ
أعـدُّ منهـا ولا أعـدِّدهـا

- العلاقة المسببية، كالتي بين «الرزق» و«المطر» في الآية الكريمة: ﴿وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ (غافر، ١٣).
- العلاقة الجزئية، كالتي بين «العيون» و«الجواسيس» في عبارة مثل: «الدول الكبرى تبعث بعيونها في أنحاء العالم».
- العلاقة الكلية، التي بين «الأصابع» و«طرف الاصبع» في الآية الكريمة: ﴿واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ (نوح، ٧).
- علاقة اعتبار ما كان، كالتي بين الطفل «اليتيم» و«الراشد» في الآية الكريمة: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ (النساء، ٢).
- علاقة اعتبار ما يكون، كالتي بين «الفاجر» و«الوليد» في قوله تعالى: ﴿ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ (نوح، ٢٧)، أو بين «الخمر» و«العنب» في الآية الكريمة: ﴿اني أراني أعصر خمراً﴾ (يوسف، ٣٦).
- العلاقة المحلية، كالتي بين «النادي» (المكان) و«أهله» الذين فيه في قوله تعالى: ﴿فليدع ناديه. سندع الزبانية﴾ (العلق، ١٧ ـ ١٨).
- العلاقة الحالية، كالتي بين «النعيم» والمكان الذي يكون فيه في قوله تعالى: ﴿ان الأبرار لفي نعيم﴾ (الانفطار، ١٣)[٣].

الاختلاف كبير بين الموقف العربي من الصور البيانية والموقف الغربي، على الرغم من أن تعريف المجاز المرسل عند العرب لا يتعارض اجمالاً مع مضمون التحديد الذي رأينا عند فونتانيه والذي يمثل منظار الغربيين قبل اللسانية. فهم يشتركون في أن الفارق بين الاستعارة والمجاز يكمن في وجود التشبيه في الأول وغيابه في الآخر. كما يتّفقون على أن المجاز المرسل مبني على العلاقة بين الشيء المسمى والشيء المراد إفادته فعلاً. ولكن العرب لا يذهبون إلى التمييز في هذه العلاقات بين ما هو عضوي وما هو متبادل. أعني أنهم لا يحللون المجاز المرسل من منظار الأشياء التي يدل عليها وتستعمل أسماؤها، ولا من منظار العلاقات التي تربط هذه الأشياء فيما بينها. فهم لا يميزون بين «العلاقة المتبادلة» و«الصلة العضوية». لذلك فإن العلاقة «الجزئية» والعلاقة «الكلية» اللتين تكوّنان في نظر الغربيين أُسَّ المجاز الكلي تدخلان عندهم في عداد المجاز المرسل. وهم بالتالي لا يميزون بين المجاز المرسل والمجاز الكلي. ويعود هذا الاختلاف إلى طبيعة الدراسات الفكرية عند العرب. فهم يلتفتون خاصة إلى عملية قراءة النص وتفسيره أكثر من التفاتهم إلى عملية الكتابة والخلق. فإذا أخذنا صورة الاتصال اللساني مرسل أوباث ← مرسلة لغوية ← مرسل إليه أو ملتقط، لرأينا أن البلاغيين العرب ينطلقون من المرسلة اللغوية إلى المرسل إليه فيحللون وحداتها المجازية من منظار عملية «فك الرموز» décodage التي يقوم بها.

ثانياً: المجاز المرسل والتحليل اللساني

١ ـ المجاز المرسل والاستعارة

يستنتج رومان جاكوبسون من دراسات قام بها لحالات من العي aphasie أن لغة الإنسان تقوم على أسَّين مختلفين: الاستعارة والمجاز المرسل (أنظر الجزء الأخير من

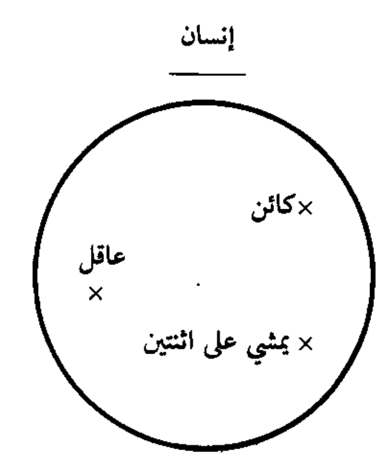
هـذا المقال). فهـو يلاحظ أن هـذا المـرض إمـا أن يصيب مقـدرة المـريض عـلى انتقـاء الكلمات واستبـدال إحـداهـا بالأخرى أو أن يصيب مقدرته على تنسيق الكلمات في عبارة معينـة ودمجها مـع كلمات أخرى. ويـذهب جاكـوبسون في دراسته تلك إلى أن اللغة تقـوم على قـطبين: قـطب المجاز المـرسل وقـطب الاستعـارة. فـالمجـاز المـرسـل يتلخص في التنسيق والـدمج والمجـاورة في حين تقـوم الاستعـارة عـلى الانتقـاء والاستبدال والمشـابهة. ونستـطيـع أن نـطبق هـذه المـلاحظات عـلى نظريـة دوسوسـور في المحـورين النـظمي والاستبدالي اللذين يقوم عليهـا عمل الـوحدات اللغـوية. ونـلاحظ بذلـك أن الاستعارة تعمـل خاصـة عـلى المحـور الاستبدالي وهي تأتي غريبة عن المنظومة الـدلالية للجملة. فعندما يقـول الله تعالى عـلى لسان زكـريا: ﴿ربِّ إني وهن العـظم مني واشتَعـلَ الـرأس شيبـاً﴾ (مـريم، ٤) يقف السامع خاصة عند الفعل «اشتعـلَ»: إنه عـلامة لغـوية لا تتناسق دلالالتها مع دلالات العلامات الأخـرى التي تتكون منها هذه المرسلة. فالنواة الدلالية لهذه العلامات تنتمي إلى نمط واحـد هـو الضعف (ونتيجته عـدم القـدرة عـلى الإنجـاب): وَهْن العـظم يعني أن الضعف اشتـدّ حتى بلغ العـظام وشيب الشعر دليـل على الشيخـوخة وبـالتالي عـلى الضعف والعجز («وقد بلغت من الكـبر عتياً»). أمـا كلمة «اشتعـل» فهي تنتمي إلى نمط دلالي مختلف تمـامـاً عن نمط الضعف والشيخـوخة. وتـأتي الصورة من هـذا الاختـلاف ويكون مجيء هذا الفعـل في هذا السيـاق نتيجة لاستبـدال كلمـة بأخـرى (كأن يكـون مكان «امتلاء الشعـر شيبـاً» أو «خط الشيب» أو «سرَى» أو «انتشر» الـخ). وعمليـة هـذا الاستبدال تتم بالطبع على المحور الاستبدالي.

أما المجاز المرسل فيعمـل خاصـة على المحـور النظمي، وهو لا يسبب تناقضـاً بين نـواته الـدلالية والسيـاق الدلالي للعبارة التي يأتي فيها. وهو إذا كـان يفسر من قبل السـامع أو القارىء كصورة بلاغية فلأنه ملتزم مع قرينـة لا يتناسق مـع محتواهـا النحوي. فـإذا تفحصنا عبـارة مثل: «تجـوب عيون العدو بلادنا» لاتّضح لنا أمران: (أ) إن قرينة «تجوب بلادنا» تستلزم في مستواها النحوي والدلالي تفسير «عيون» من المنـظار المجـازي: العيـون هي الجـواسيس. (ب) من الناحية الدلالية لا يوجد اختلاف كبير بين معاني «العيـون» و«الجـواسيس». فالكلمـة الأولى تعني في الحقيقة «النـظر» و«التمعن» و«التفحص» و«الانتبـاه» الـخ. وهي بـذلـك تنسجم مع المعنى الدلالي العام للجملة، بل هي تؤكـد ان أهم معاني هذه الجملة هـو وجود جـواسيس «ينظرون» إلى مـا نفعل وينتبهـون إليه ويتفحصـونـه بـإمعـان. من جهـة أخرى، فإن الفرق الدلالي بين «العيون» و«الجواسيس» لا يعـد اختـلافـاً كبـيراً إذا قيسَ بـالاختـلاف الشـاسـع بـين «الاشتعال» و«انتشار الشيب». فالمجاز المرسل ليس غـريبـاً من هذا المنظار عن المنحى الدلالي للمرسلة اللغوية، وهذا مـا يجعل منه صـورة تـظهـر في الكـلام العـادي أكـثر من الاستعارة (يقول أحد اللّغويين إن كلام السُّوقة ولغة العامة يحتويان من المجاز المرسل أكثر مما تحتويه دفّتا كتـاب أدبي). كما أن القارىء أو السـامع لا ينتبـه للسبب ذاته إلى وجـود هذه الصورة قدر انتباهه إلى الاستعارة.

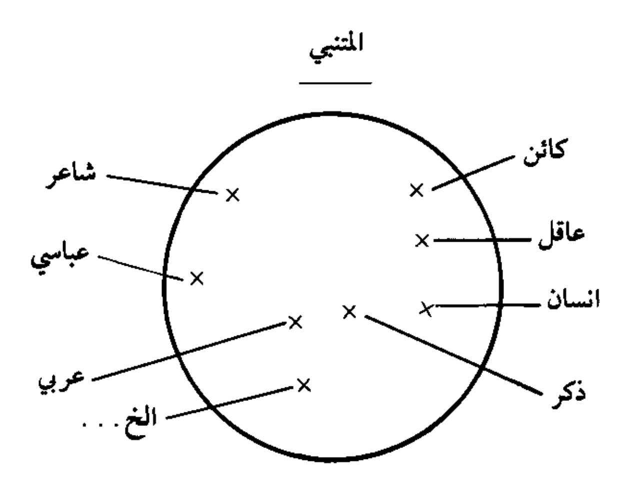
٢ ـ المفهوم والمدلول

يميز العلماء بين المفهوم والمدلول من منظار إدراك الكلمة ودلالاتهـا الإرجـاعيـة؛ فـالمفهـوم Compréhension هـو مجموع الخصائص التي يمتاز بها كـائن ما أو شيء مـا، وكلما كان مفهوم كلمـة كبيراً كلما كـانت خصائص الشيء الـذي تدل عليه أكثر عدداً وتنوعاً. أما مدلول الكلمة extension فهو مجموع الكـائنات أو الأشيـاء التي ينطبق عليهـا تعريف هذه الكلمة الدلالي، أي أن كل هذه الكائنـات (أو الأشياء) تتمتّع بعدد معين من الخصائص المشـتركة التي تميـزها والتي تنطوي عليها هذه الكلمة. ولنـأخذ الجملة التـالية: «كـان المتنبي انســانـاً عـظيمــاً». إذا حللنــا كلمتي «المتنبـي» و«انسـان» من خلال هـذا التعريف السـابق، لوجـدنا أن مفهوم كلمة «انسان» أضعف من مفهوم كلمـة «المتنبي» في حين أن مدلولها أوسـع من مدلـول هذه الأخـيرة. فإنسـان ينطوي على خصائص مثل: «كائن»، «عاقل»، «يمشي على اثنتـين»، وهذا هـو المفهوم. أمـا المـدلـول فيتضمن جميع الكائنات البشرية التي وجدت وتوجد وستـوجد في العـالم. من نـاحية أخرى فإن كلمـة «المتنبي» تنطوي عـلى مفهـوم واسـع جداً مثـل: «كائن»، «انسـان» (عاقـل، يمشي عـلى اثنتين)، «ذكر»، «شاعر» (مـدّاح، هجاء، حكمي...)، «عـربي»، «عباسي»، الـخ... (من الممكن إضـافـة لـون الشعـر، والعينـين والبشرة، والقـامـة والأنف، إلى مـا هنالك)، في حين ينحصر مدلـولها في شخص واحـد فقط. وهكذا نلاحظ أنه كلما اتسع مفهـوم كلمة وتضمن عنـاصر متعددة كلما ضاق مدلولهـا وانحصر، كما يتبـين في الرسـوم التالية:

أ ـ مفهوم كلمتي «المتنبي» و «إنسان»

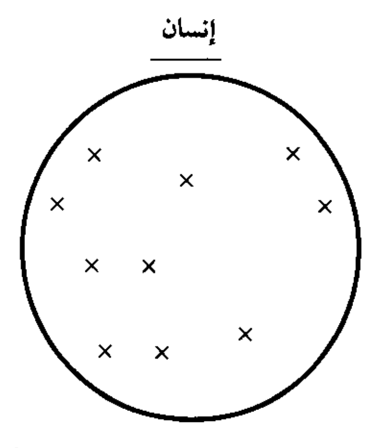


مفهوم ={كائن + عاقل + يمشي على اثنتين}

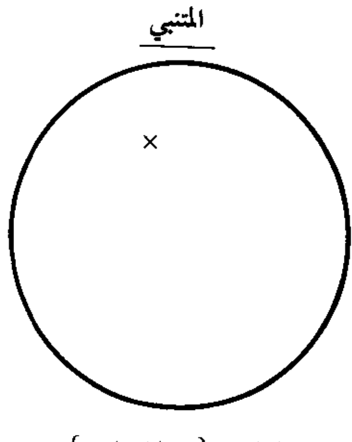


مفهوم = {كائن + عاقل + انسان + ذكر} {شاعر + عباسي + عربي + الخ . .}

ب ـ مدلول كلمتي «المتنبي» و «انسان»



مدلول = {مجموع الأفراد البشرية}



مدلول = {انسان واحد}.

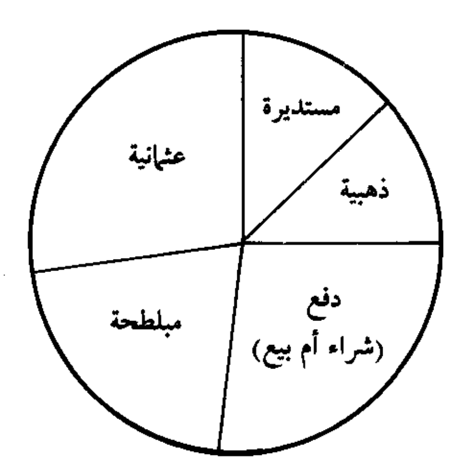
وهكذا فإن المفهوم والمدلول يتناسب كل منهما عكساً مع الآخر. وإذا سلّمنا مع هنري موريه بأن مفهوم الكلمة هو «مجموع الخصائص الكافية والضرورية لتحديد الواقع الذي تمثّله»[4]، لجاز اعتبار هذه الخصائص بمثابة وحدات معنوية صغرى تدخل في تعريف حقلها الدلالي. أما مدلول الكلمة فهو يتضمّن ـ من المنظار ذاته ـ الأشياء غير اللسانية التي ترجع إليها.

انطلاقاً من تحديد المفهوم والمدلول، نستطيع القول أن المجاز المرسل يعمل في مفهوم الكلمة ومدلولها على السواء.

فكلما استعملنا كلمة في قرينة تحدث تغييراً ضمن مفهومها الخاص وانزياحاً عن مدلولها، كان هناك مجاز مرسل. إن مفهوم «الخمر» مثلاً هو: «عنب»، «معصور»، «مخمر»، «مسكر»، الخ. فإذا قلنا «رأى أحدهم نفسه في المنام يعصر خمراً» نكون قد انتقينا من مجموع الخصائص التي تكوّن مفهوم هذه الكلمة خاصية واحدة فقط هي «العنب». من ناحية أخرى يكون مدلول هذه الكلمة قد انتقل من الشراب المسكر إلى العنب الذي هو في أصل وجوده.

٣ ـ التحليل الدلالي

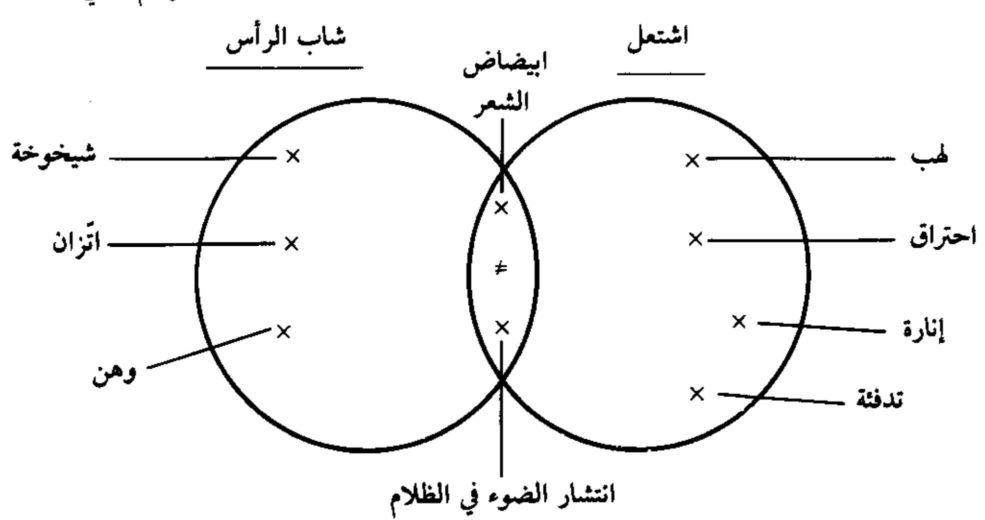
إذا كان المجاز المرسل يحدث تغييراً في مدلول الكلمة ومفهومها، فإنه بالتالي يحدث تغييراً في حقلها الدلالي، خاصة وان المفهوم يتناول خصائص دلالية كما رأينا. ولنأخذ كلمة مثل «عثمانية» (تقول العامة «عثملّية»)، وهي تدل على قطعة نقود ذهبية كانت متداولة أيام العثمانيين. يتكون الحقل الدلالي لهذه الإشارة اللغوية من الوحدات التالية:



هذه الوحدات المعنوية الصغرى مهمة في تحديد معنى الكلمة ولكنها ليست في درجة واحدة من الأهمية. فوحدة «مبلطحة» ليست في مستوى «الدفع» مثلاً. كما أن وحدة «مستديرة» أقل أهمية من «ذهبية». والإنسان العادي الذي كان يستعملها لم يرَ في مجموع هذه الوحدات إلا تلك التي يعتبرها أكثر أهمية من غيرها ألا وهي أنها قطعة مصكوكة بأمر السلطان العثماني ومعترف بها من قبله. وهو لذلك يدعوها بـ «العثمانية». كما أنه يستعمل هذه الصفة لتمييز القطعة العثمانية عن القطعة الانكليزية (كان آباؤنا في مطلع القرن يتكلمون عن «المجيدية» و «العثمانية» والإنكليزية»).

وهكذا فإن العقل في المجاز المرسل يعمل ضمن الوحدات المعنوية الداخلية للكلمة فينتقي إحداها ليركز اهتمامه عليها على حساب الوحدات الأخرى. يقول البير هنري: «إن العقل في المجاز المرسل إذ يجوب الحقل الدلالي يركز على إحدى الوحدات المعنوية الصغرى، فيدل على تصور الحقيقة التي يراها بواسطة كلمة تعبّر في الواقع اللساني البحث عن هذه الوحدة نفسها، إذا أخذت من منظار تصور الحقيقة»[٥].

كذلك فإن استعمال كلمة «أيادي» للدلالة على النِّعَم يأتي نتيجة لتركيز فكر الشاعر على وحدة معنوية خاصة هي استعمال «اليد» في منح الأعطيات. وتتجلّى أهمية هذا التحليل إذا قيس المجاز المرسل بالاستعارة. فالمجاز يعمل كما رأينا ضمن الوحدات المعنوية الداخلية للكلمة، وهو إذ ينتقي إحدى هذه الوحدات عن غيرها، فإنه لا يلغي أيّاً منها. أما الاستعارة فهي على حد قول ميشال لوغوارن «تمتاز بتعليق بعض العناصر المعنوية» وإبعادها عن المدلول المباشر للكلمة[٦]. فإذا تناولنا المثال «وقد **اشتعل** الرأس شيباً» لرأينا أن «اشتعل» في اللغة تتضمن الوحدات المعنوية التالية: «نار»، «التهاب»، «احتراق»، «تدفئة»، «إنارة»، «انتشار الضوء في الظلام» الخ... ويمثل استعمال هذه الكلمة في مثالنا انتقاء للوحدة الأخيرة (انتشار النور في الظلام = إبدال الأبيض بالأسود) وانتفاء للوحدات الأخرى وإلغاء لها. وهذا ما يبيّنه الرسم التالي:



والعلاقة هنا بين ابيضاض الشعر وانتشار الضوء في الظلام هي بالطبع علاقة تشبيهية. فالاستعارة كما يقول لوغوارن تقوم على مراحل قد تكثر أو تقل من التشبيه والتقريب بين وحدات معنوية صغرى لكلمات متباينة[٧].

٤ ـ العملية الذهنية والمجاورة

رأينا أن المجاز المرسل يعتمد على عملية ذهنية ينتقي العقل فيها وحدة معينة من الوحدات التي يتضمنها مفهوم الكلمة. والواقع أن اللسانيين يعدون هذه العملية بمثابة تركيز أو تبئير (من «بؤرة» وهي ملتقى الأشعة) يسلط العقل فيها أضواءه على عنصر معين من الحقيقة دون العناصر الأخرى التي تجاوره. يقول ألبير هنري: «في الأصل، توجد حرية الفكر في التعرض لجميع المشاهد بوسائل مختلفة جداً وغير مباشرة، أو بالأحرى، هو يستطيع أن ينظر إلى مادته الخاصة وفق طرق مختلفة تتعلّق باهتماماته الأساسية أو العرضية (. . .). ويكمن عمل الفكر الأساسي في التبئير: فهو يصوب حزمته الفاحصة والمضيئة ويركزها وينشرها تبعاً لاهتماماته ونواياه. فإذا تناولنا حالة المجاز المرسل أو المجاز الكلي رأينا أن الفكر يعمل فيهما ضمن بعض التصورات المتجاورة وضمن العلاقات التي تربط بعضها بالبعض الآخر، وهو يغض النظر عن بعض عناصر المفهوم الحقيقية أو يتصنع تجاهلها»[٨].

ويذهب ميشال لوغوارن إلى أبعد من ذلك. فهو يرى أن المجاز المرسل ليس صورة مجاورة فقط figure de contiguité بل صورة تتعرض للعلاقة المرجعية للغة. والعلاقة المرجعية تربط بين المرسلة اللغوية والشيء الذي تدل عليه إذا ما اتُّخذ هذا الأخير من زاوية وجوده الحقيقي أو من زاوية وجودِه في ذهن المتكلم أو السامع. فإذا كان المجاز المرسل يُعبر عن طريقة معينة في رؤية الأشياء (كما رأينا) فإنه كذلك «يكمل العملية المرجعية الطبيعية للغة بأن يضيف إلى تسمية الحقيقة المشار إليها معلومات عن الوسيلة الخاصة التي ينظر بها المتكلم إلى تلك الحقيقة»[٩]. فعندما ادعو الجواسيس بكلمة «عيون» أكون قد أضفت إلى الحقيقة التي أشير إليها (أي الإنسان الذي يخبر العدو بما يجري في بلدي) نظرتي إلى هؤلاء الجواسيس وشعوري نحوهم. فأنا أرى فيهم «عيوناً» تسرق المشاهد والأخبار. من هنا جاءت نظرية لوغوارن القائلة بأن المجاز المرسل يقوم على تحول أو انزلاق في الإرجاع glissement de référence. فعبارات مثل «أحبُّ قراءة المتنبّي» أو مثل «قلَمُ هذا الكاتب جيّدٌ» (للدلالة على ديوان الأول وأسلوب الثاني) تشهد انتقالاً مرجعياً في كلمتي «المتنبي» و«قلم» من الشخص إلى كتاباته (أو أشعاره) ومن الأسلوب إلى أداته. وهذا الانتقال يتم بالطبع بين أشياء متجاورة ذهنياً إما على صعيد الزمان (كاستعمال إشارة السبب لذكر المسبب) أو على صعيد المكان (كاستعمال إشارة المكان للدلالة على صاحب المكان)[١٠].

بيد أن هذا التحول لا يتمُّ دائماً بين متجاورين مباشرين كما أنه ليس بالضرورة حاضراً في ذهن المتكلم. فإذا كان التجاور ضرورياً ومباشراً بين «الأصابع» و«الأنامل» (في الآية «واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم») وبين النِّعَم و«اليد التي تهبها» (في قول الشاعر «له أيادٍ عليَّ سابغة»)، فإن أمثلة عديدة من المجاز المرسل تقوم على تجاور بعيد أو غير ضروري. فالعلاقة بين الطفلة و«القبعة الحمراء» في حكاية الأطفال ليست علاقة تجاور ضرورية على الرغم من أنها مباشرة. كذلك فإن المجاورة بين «الغيث» و«الكلأ» في العبارة «رعت الماشية الغيث» ليست مباشرة (هناك الغيث ثم التراب ثم البذار ثم العوامل الجوية والفصلية ثم الكلأ). ومن الأمثلة أن شيخاً عربياً أراد أن يقول أنه أصبح شيخاً هرماً يتطلّع إلى الماضي ويعاود ذكره أكثر من تطلعه إلى الحاضر والمستقبل وذكرهما فقال إنه يستعمل كلمة «كنت» بكثرة:

فأصبحتُ كنتيّاً وأصبحت عاجناً
وشرُّ خصال المرء كنتُ وعاجنُ.

والعلاقة هنا بين فعل «كنت» والشخص الهرم الذي يستعمله علاقة مجاورة غير مباشرة وغير ضرورية على السواء. فهي علاقة واهية وبعيدة إذا ما قيست من منظار ارتباط الشخص بكلمة واحدة من مجموع الكلمات العديدة التي يستعملها، كما أن الإكثار من استعمال فعل «كنت» لا يرتبط بالضرورة بكون المتكلم شيخاً أو هرماً.

من ناحية أخرى، ليست علاقات المجاورة حاضرة دوماً في ذهن المتكلّم والسامع. فعبارة «وضع أصابعه في آذانه» أصبحت اليوم متداولة في الفصحى والعامية لدرجة أنني عندما استعملها أو أسمعها لا يخطر على بالي تجاور الإصبع والأنمل. كما أنني عندما أقول لأحدهم: «إشرب هذا الكأس» لا أعي أن محدثي سيشرب «محتوى» الكأس وليس الكأس بحد ذاته. والواقع أن المتكلم والسامع لا يدركان

فوراً وجود صورة بيانية في مثل هاتين العبارتين.

وعندما نسمع في نشرة الأخبار أو نقرأ في الصحف أن «تل أبيب ترفض المقترحات اللبنانية» لا نعي في الوهلة الأولى وجود صورة في هذه العبارة. فالعلاقة بين «تل أبيب» وبين الحكومة التي تتخذ منها مقراً وعاصمة (هي كذلك بالنسبة لنا) هي علاقة طبيعية وتلقائية لدرجة أن استعمال اسم الأولى للدلالة على الثانية لا يبدو «انزياحاً لغوياً يتطلّب انتباه القارىء»[١١]. لكل هذه الأسباب نرى أن المجاز المرسل يوجد بكثرة في اللغة العامية. وهو يدخل بسهولة في الاستعمال العادي للغة[١٢]، إما لأنه لا يتطلّب عملاً ذهنياً كبيراً كما في الاستعارة أو لأن الذهن ميال إلى الكسل[١٣].

ثالثاً: رومان جاكوبسون[١٤]:
«ظاهرتا اللغة وحالتان من العيّ» (مقتطفات)

«**١ ـ خاصتا اللغة**: إن التكلم يقتضي انتقاء بعض مكونات اللغة وتنسيقها في وحدات لغوية تفوق هذه المكونات تعقيداً. وهذا يظهر على الفور على مستوى المفردات: إن المتكلم يختار الكلمات وينظمها في جمل تلائم النظام النحوي للغة التي يستعملها. وتنتظم هذه الجمل بدورها في منطوقات. بيد أن المتكلم ليس حراً البتة في اختيار الكلمات: فالانتقاء يجب أن ينطلق من مخزون المفردات الذي يملكه بالاشتراك مع السامع لكلامه (إلا في حالات نادرة من استعمال كلمات مستحدثة).

(...) وهكذا فإن كل إشارة لغوية تقتضي نوعين اثنين من ترتيب الوحدات اللسانية:

أ) **التنسيق**: كل إشارة تتألف من إشارات مكونة و/أو تظهر منتظمة مع إشارات أخرى. وهذا يعني أن كل وحدة لغوية تعمل في الوقت ذاته كسياق لوحدات أصغر منها و/أو تجد سياقها الخاص بها في وحدة لسانية أكثر تعقيداً منها. ويتبع ذلك أن كل تركيب فعلي لوحدات لغوية يربطها بوحدة أعلى: إن التنسيق والترابط هما وجها عملية واحدة.

ب) **الانتقاء**: إن الانتقاء من بين مفردات تبادلية يفترض إمكانية استبدال إحدى هذه المفردات بمفردة أخرى تكون متوازية معها من وجهة ومختلفة عنها من وجهة أخرى. والواقع أن الانتقاء والإبدال هما وجها عملية واحدة.

(...) إن الانتقاء (وكذلك الإبدال، بحكم العلاقة بينهما) يختص بالوحدات اللغوية المترابطة في النظام وليس في مرسلة معينة. في حين أنه في حالة التنسيق تكون الوحدات مترابطة في الاثنين معاً أو في المرسلة الفعلية وحدها. ويدرك السامع أن مقولة معينة (المرسلة) هي عبارة عن **تنسيق** بين أجزاء مكونة (الجمل، الكلمات، الحروف، الخ) **منتقاة** من مجموع كل الأجزاء التي يمكن أن تكون مكونة لها (النظام اللغوي). إن مكونات سياق معين تخضع لقانون **المجاورة**، في حين أن الإشارات التي تنتمي إلى مجموعة استبدالية ترتبط فيما بينها بدرجة مختلفة من التشابه وتتردد بين التعادل في حال المرادفات والنواة المشتركة في حال التضاد.

٢ ـ قطبا الاستعارة والمجاز المرسل

كل شكل من أشكال الاضطراب الناتج عن العيّ يقوم على ضعف معين ـ تتفاوت درجة حدته ـ يصيب إما المقدرة على الانتقاء والإبدال أو المقدرة على التنسيق والترابط. في الحال الأولى، يطرأ تلف في عمليات تعدي اللغة بينما تصيب الحال الثانية القدرة على المحافظة على نظام الوحدات اللغوية. وتكون علاقة المشابهة مفقودة في النمط الأول وعلاقة المجاورة في النمط الثاني. ويستحيل وجود الاستعارة في اضطراب المشابهة ويستحيل وجود المجاز المرسل في اضطراب المجاورة.

يمكن للخطاب أن يتقدم على خطين دلاليين مختلفين: يسوق «موضوع» ما موضوعاً آخر إما بالتشابه أو بالمجاورة. وبما أن الحال الأولى تجد تفسيرها الأكثر كثافة في الاستعارة والثانية تجده في المجاز المرسل، يكون من الأفضل ولا شكّ أن نتكلّم عن **عملية استعارية** في الحال الأولى وعن **عملية مجازية** في الثانية. وتكون إحدى هاتين العمليتين منتقصة أو معلّقة تماماً في مرض العيّ، ـ وهذا ما يجعل دراسة العيّ مفيدة جداً لعالم اللسانية. فهاتان العمليتان تعملان بشكل دائم في السلوك اللغوي الطبيعي، ولكن الملاحظة الدقيقة تدل على أن إحديهما تأخذ الغلبة على الأخرى تحت تأثير النموذج الثقافي والشخصية والأسلوب.

في أحد الاختبارات النفسية، وُضع أولاد أمام اسم معين وطُلب منهم أن يعبّروا عن أول ردّ فعل كلامي يخطر على بالهم. وأظهرت التجربة أنه كان يظهر دوماً نوعان من الميول اللغوية: كان الجواب إما بديلاً عن الاسم المعطى أو مكملاً له. وفي الحالة الثانية كان الاسم والجواب يمثلان

معاً تركيباً نحوياً خاصاً، وكانا يؤلفان غالباً جملة. وقد لقب هذان النوعان من ردات الفعل بلفظتي «إبدالية» و «إخبارية».

إن التفاعل بين هذين العنصرين واضح بشكل خاص في فن اللغة (. . .) فالشعر يدفع إلى اختيار أحدهما لأسباب مختلفة. وإذا كانت أولية العملية في المدارس الرومانسية والرمزية قد نوّه بها عدة مرات، فإنه لم يفهم بعد بما فيه الكفاية أن المجاز المرسل هو الذي يسيطر على التيار الأدبي المسمّى «الواقعي» ويحدده بالفعل، هذا التيار الذي ينتمي إلى حقبة متوسطة بين زوال الرومانسية وولادة الرمزية والذي يعارض كلاً من هاتين المدرستين. فالكاتب الواقعي يتبع طريق علاقات المجاورة ويقوم باستطرادات مجازية ينتقل فيها من الحبكة إلى جوها ومن الشخصيات إلى الإطار المكاني والزماني. وهو محبٌّ للتفاصيل المجازية. في مشهد انتحار أنا كارانينا، يتركز انتباه «تولستوي» الفني على حقيبة البطلة. وفي الحرب والسلم يستعمل الكاتب نفسه المجازات «زغب على شفتها العليا» و «كتفان عاريان» ليدل على الشخصيات النسائية التي تنتمي هذه المعالم إليها.

إن الغلبة الخاصة لإحدى هاتين العمليتين على الأخرى لا تختص مطلقاً بالفن الأدبي. إذ أن التأرجح نفسه بينهما يظهر في أنظمة إشارات غير نظام اللغة. ونأخذ على سبيل المثال تاريخ الرسم. فالاتجاه المجازي واضح في المذهب التكعيبي الذي يحول إلى مجموعة من المجازات. ويعارضه الرسامون السورياليون بمفاهيم استعارية واضحة. ومنذ انتاجات «جريفيث» خرقت السينما التقاليد المسرحية بفضل قدراتها المتطورة جداً على تغيير الزوايا والأبعاد وتنظيم التقاط المشاهد، واستعملت سلسلة لا سابق لها من التصاميم المجازية الضخمة والمناظر الاستعارية العامة. وفي أفلام مثل أفلام شارلي شابلن، حلّت مكان هذه الوسائل نماذج جديدة استعارية من «المونتاج» مع ما يسمى بـ «تبادل الصور المتطابقة» ـ وهي تشبيهات فيلمية حقيقية.

إن البنية ذات القطبين التي تتكون منها اللغة (وأنظمة سيميائية أخرى) والتركيز على أحد هذين القطبين دون الآخر في حالة العيّ، يتطلبان دراسة مقارنة منظمة. ويجب أن يربط بين الاحتفاظ بأحد القطبين في طرازي العي وبين تغلب القطب ذاته في بعض الأساليب والعادات الشخصية والأذواق السائدة الخ. . فالتحليل الدقيق لطراز العيّ المقابل لهذه الظواهر ومقارنته معها يشكلان مهمة تحتم البحث المشترك على الاختصاصيين في علم النفس وعلم النفس المرضي واللسانية وعلم البلاغة وعلم السيمياء (وهو علم الإشارات العام). وهذا التفرع الثنائي الذي ندرسه هنا هو على ما يبدو ذو معانٍ وذو أهمية أساسية في فهم السلوك الكلامي والسلوك البشري العام.

(. . .) إن المنافسة بين هاتين الطريقتين، المجازية والاستعارية، جلية في العملية الرمزية، أكانت هذه العملية فردية داخلية أم اجتماعية. وهكذا فإن السؤال الجوهري الذي تتضمنه دراسة بنية الأحلام يدور حول معرفة ما إذا كانت الرموز والمقاطع الزمنية المستعملة مبنية على المجاورة («الانتقال» و «التكثيف» المجازيين عند فرويد) أو على التشابه («التقمص النفسي» و «الرمزية» عند فرويد). وقد رد فرازر المبادىء التي تقود الطقوس السحرية إلى مثالين اثنين: التعويذات التي تقوم على قانون التشابه والتعويذات التي تركز على الترابط بالمجاورة. وقد أطلق على الفرع الأول من السحر اسم «المتجانس» أو «المقلد» وعلى الثاني اسم «السحر بالعدوى». والواقع أن هذا التصنيف الثنائي ذو معانٍ موضحة. مع ذلك تبقى مسألة القطبين مهملة في أكثر الأحيان، على الرغم من أهميتها العظيمة في دراسة السلوك الرمزي وخاصة السلوك الكلامي واضطراباته. فما هو السبب الأساسي لهذا الاهمال؟

إن التشابه في المعاني يربط بين رموز لغة ماورائية ورموز اللغة التي ينتمي إليها. والمشابهة تربط العبارة الاستعارية بالعبارة التي تحل محلها. وعليه فإن الباحث عندما يستعمل اللغة لتفسير صور اللغة يملك وسائل متجانسة لمعالجة الاستعارة؛ في حين أن المجاز الذي يقوم على مبدأ مختلف يستعصي على التفسير. لذلك كانت الدراسات المكتوبة حول الاستعارة أكثر بكثير من تلك التي تختص بنظرية المجاز. وللسبب ذاته، فإن العلاقات الحميمة التي تربط بين الرومانسية والاستعارة معروفة بشكل عام، بينما القرابة العميقة التي تربط بين الواقعية والمجاز مغفلة في أغلب الأحيان».

د. بسام بركة
(الجامعة اللبنانية)

الهوامش والمراجع :

(1) Bernard Lamy, ***La Rhétorique*** **ou L'Art de parler,** Paris, 1757, p.120-121.

(2) Pierre Fontanier, **Les Figures du discours,** paris, Flammarion, 1977, p.79-86.

(٣) أنظر محمد اسبر وبلال جنيدي، **الشامل**، بيروت، دار العودة، ١٩٨١ (مادة «مجاز»).

(4) Henri Morier, **Dictionnaire de *Poétique* et de Rhétorique,** Paris, P.U.F., 3ème édition, 1981, p.744.

(5) Albert Henry, ***Métonymie*** **et Métaphore,** Paris, Klincksieck 1972, p.25.

(6) Michel Le Guern, **Sémantique de la Métaphore et de la métonymie,** *Paris, Larousse, 1973, P.19.*

(7) Ibid, p.52-65.

(8) Albert Henry, op. cit., p.23.

(9) M. Le Guern, op. cit. p.78.

(10) Ibid, p.14.15.

(١١) للتعمق في تحليل الانزياح اللغوي ودراسة الأسلوب من المنظار اللساني، أنظر كتاب عبدالسلام المسدّي، **الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب**، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٧.

(12) Cf. Kr. Nyrcp **Grammaire historique de la langue française Copengaque** 1899-1930. 6 volumes.

(١٣) في الحقيقة، يفسر شارل بالّي استعمال المجاز المرسل بكَسَلٍ في التفكير Paresse de pensée وفي استعمال اللغة. أنظر:

Charles Bally, **Traité de Stylistique *française,*** Paris, Klincksieck 1909.

(١٤) هذه ترجمة لبعض مقاطع من فصل: «Deux aspects du langage et deux types d'aphasie» المنشور في كتاب جاكوبسون:

Jakobson, **Essais de linguistique générale,** *Paris, éd. de Minuit, 1963, p.43-67.*